الفصل الأول

مقـدمات عامـة

- الشك فى وجود الفلسفة الإسلامية وتسميتها ·
- تعريف الفلسفة·
- فروع الفلسفة الإسلامية·
- عوامل نشأة الفلسفة الإسلامية ·

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الشك فى وجود الفلسفة الإسلامية وتسميتها

تعرضت الفلسفة الإسلامية لبعض الشكوك فى وجودها ، وأيضا فى تسميتها هل هى إسلامية أم عربية أم الاثنين معا ؟ - وتعددت وجهات النظر بإزاء تلك المشكلات ، ونعرض بإيجاز لبعض تلك الآراء ، مكتفين بمجرد الإشارة إليها ، لاقتناعنا بأن هذه المشكلات والآراء أصبحت تاريخية ، ولم تعد لها أهمية ، حيث إن معظمها قد كتب والدراسات حول تلك الفلسفة فى بدايتها ، ولم تستطع تلك البدايات أن تكشف عن هوية تلك الفلسفة أما الآن فلقد زاد الاهتمام بها وتنوعت الدراسات حولها ، واستطاعت تلك الدراسات الواسعة أن تكشف عن أوجه الفلسفة الإسلامية وفروعها ومدى أصالتها وتأثرها بغيرها من الثقافات اليونانية وغيرها من فارسية وهندية .

ونشير بإيجاز إلى تلك الآراء ، فبالنسبة إلى الشك فى وجود فلسفة إسلامية ، فنجد فريقا من الغربيين ينفون وجودها ، منهم من أرجع ذلك إلى أن القرآن يعوق النظر العقلى ، وكذلك تمسك أهل السنة بالنصوص ، وباقى طبيعة العرب القومية من ميل إلى التأثر بالأوهام ، لذا لم يصنع المسلمون شيئا أكثر من شرحهم لمذهب أرسطو والذى كان له سلطانا كبيرا على عقولهم ، وطبقوا هذا المذهب الأرسطى على قواعد دينهم الذى يتطلب إيمانا أعمى ولقد شوهوا أيضا مذهب أرسطو(١) .

وهذا الرأى قد ذهب إليه « تنمان » وهو رأى خاطىء لأن القرآن يشجع على النظر العقلى وسوف نعرض لذلك بالتفصيل فيما بعد . ولقد استفاد منه المسلمون فى إقامة تفكيرهم الفلسفى فى فروعه المختلفة ، بجانب العوامل والمؤثرات الأخرى ، بل إن « تنمان » نفسه يعترف بأن الآثار الفلسفية العربية لم تدرس إلا دراسة ضئيلة جدا لا تجعل علمنا بها مستكملا(٢) .

(١) الشيخ مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٥

(٢) الشيخ مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٧

ومنهم من بنى شكه على أساس التعصب للجنس مثل « رينان » الذى رد كل قصور العقلية السامية وبالتالى العقلية الإسلامية عن الإبداع الفلسفى إلى استعداد فطرى طبيعى لإنتاج أمر واحد فى دائرة واحدة ، وهذا الشىء المنتج فى رأيه هو التوحيد[1] .

ووفقا لهذا فالعقلية السامية فى رأيه غير قادرة على التحليل والتركيب ونجد تعبيرا آخر عن نفس الفكرة عند « جوتييه » الذى يقول بأن عقلية العربى تعود إلى بيئته المتقلبة المتغيرة ، لذا لم يحاول العربى أن يبحث فى المسائل بنظرة موفقة مقارنة ويضعها فى وحدة متناسقة فلم يجمع ولم يقارن ولم يركب ، بينما استطاعت العقلية الآرية أن تجمع ، وتقارن ، وتركب ، وتصل بين الأضداد ، وأن تضع كل هذا فى وحدة متناسقة[2] .

ولقد تعرضت هذه الآراء للنقد ، فلقد ذهب « دوجا » إلى أن هذه الأحكام ليست دقيقة وأنها تذهب إلى حد الشطط ، وذلك يرجع إلى سوء التحديد للفلسفة ، والجهل بما للعرب من مصنفات سوى شروحهم لمؤلفات أرسطو ، وأنهم ليسوا مجرد مقلدين لفلاسفة اليونان ، فهل يظن أن عقلا كعقل ابن سينا لم ينتج فى الفلسفة شيئا طريفا ، وهل مذاهب المعتزلة والأشعرية ليست ثمارا بديعة أنتجها الجنس العربى[3] .

كما أخطأ كل من رينان وجوتييه فى حصر فلاسفة الإسلام فى الجنس السامى فقط ، فإن منهم من هو من الجنس الآرى ، وعلاوة على ذلك فإنه يمكن القول بأن نظرية تفوق الأجناس والقوميات لا تقوم على أى سند علمى أو تاريخى ، بل لقد سقطت تلك النظريات التى سادت القرن التاسع عشر الميلادى .

ولقد عرض الشيخ مصطفى عبد الرازق لهذه القضية بالتفصيل ورد على القائلين بإنكار وجود فلسفة إسلامية ، وانتهى إلى القول بأن للفلسفة الإسلامية كيانا خاصا يميزها عن مذهب أرسطو ومذاهب مفسريه ، وأن فيها عناصر يونانية غير مذهب أرسطو ، وفيها عناصر من آراء هندوسية وفارسية ،

---

(١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ١ ص٢٥ .

(٢) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ١ ص٢٧ .

(٣) الشيخ مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٧ ، ٢٨ .

ثم إن فيها ثمرات من عبقرية أهلها فى تأليف نسق فلسفى قائم على مذهب أرسطو ، مع تلافى باقى هذا المذهب من عيوب ونقص باختيار آراء من مذاهب أخرى ،وبالابتكار ، وظهرت أيضا أبحاثهم فى الصلة بين الدين والفلسفة[١] .

فهو بذلك لا ينكر أثر العوامل الأجنبية فى الفكر الإسلامى وتطوره ، لكن هذه العوامل مهما يكن من شأنها ، فهى أحداث طارئة على الفكر الإسلامى ، صادفته شيئا قائما بنفسه ، فاتصلت به ، ولم تخلقه من العدم ، وكان بينهما تماذج أو تدافع ، ولكنها على كل حال لم تمح جوهره محوا[٢] .

أما عن الشك فى التسمية ، فمن الباحثين من يقول إنها فلسفة عربية لأن رجالها كانوا يكتبون آثارهم بالعربية ، وكان منهم من لم يكن مسلما ، كثابت ابن قرة ، وإسحاق بن حنين وفلاسفة اليهود ، وهؤلاء كانوا يكتبون مصنفاتهم بالعربية .

ومنهم من يقول بأنها فلسفة إسلامية ، لأن هذه الفلسفة ليست عربية لأن جمهرة أهلها لم يكونوا من أصل سامى ، ويرون أنها أحق أن تضاف إلى الإسلام لأن له فيها أثرا ظاهرا ، ولأنها نشأت فى بلاد إسلامية وعاشت تحت راية الإسلام .

والقول بأنها فلسفة عربية إنما هو رجوع إلى دعاوى التعصب الجنسى ، والإسلام قد جمع تحت رايته شعوبا شتى وأجناسا متعددة ، وقد ساهمت جميعها فى حركته الفكرية .

وإما أن يراد بإسلاميتها أنها ثمرة أفكار المسلمين وحدهم فهذا ما يناقض التاريخ ، لأن المسلمين تتلمذوا لنساطرة ويعاقبة ويهود وصابئة ، واستمروا فى نشاطهم العلمى والفلسفى متآخين متعاونين مع أصدقائهم ومعاصريهم من اليهود والمسيحيين .

ولقد عرض الشيخ مصطفى عبد الرازق لهذه المشكلة بالتفصيل وعرض لكافة الآراء المختلفة قديما وحديثا ، وانتهى إلى أن الأرجح فى التسمية أنها

---

(١) الشيخ مصطفى عبد الرازق تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٥

(٢) الشيخ مصطفى عبد الرازق تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٩٨

إسلامية ، وذلك لأن الإسلام ليس دينا فقط بل دين وحضارة ، وهذه الدراسات على تعدد وتباين المشتغلين بها قد تأثرت بالحضارة الإسلامية ، فهى إسلامية فى مشاكلها والظروف التى مهدت لها ، وإسلامية فى غايتها وأهدافها، وإسلامية بماجمعه الإسلام من باقتها من شتى الحضارات ومختلف التعاليم

كما أن أهلها قد وضعوا لها اسما اصطلحوا عليه فلا يصح العدول عنه ولا يجوز الخلاف فيه ، فابن سينا يعبر بكلمة « المتفلسفة الإسلامية » والشهرستانى بكلمة « فلاسفة الإسلام » وغيرهما قد استخدام كلمة « حكماء الإسلام » ، لذا تسمى « فلسفة إسلامية » كما سماها أهلها حيث إنها نشأت فى بلاد الإسلام وفى ظل دولته[1] .

* * *

تعريف الفلسفة

وضع فلاسفة الإسلام عدة تعريفات للفلسفة لا تخرج فى معظمها عما وضعه فلاسفة اليونان من قبل ، ونختار من بين هذه التعريفات تعريفات أول فلاسفة العرب والإسلام وهو الكندى والذى كان له فضل أول واضع للمصطلح الفلسفى بين فلاسفة الإسلام ، فوضع رسالة بعنوان « رسالة فى حدود الأشياء ورسومها »وهى تضم تعريفات كثيرة لأمور ومفهومات شتى من ميادين مختلف العلوم ، وتشمل هذه الرسالة على نحو من مائة تعريف من علوم المنطق والرياضيات والطبيعة وما بعد الطبيعة والنفس والأخلاق وغيرها ، وأهم هذه التعريفات هى التعريفات الفلسفية الخالصة التى نجد بينها تعريف النفس والجوهروالصورة والأسطقس والأزل والمقولات والفلسفة . . . الخ[2].

ويذكر الكندى تعريف الفلسفة فيقول « حدها القدماء بعدة حروف :

---

(١) الشيخ مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢ ٣ حيث عرض بالتفصيل لتلك المشكلة ولقد أوجزنا رأيه

(٢) د. محمد عبد الهادى أبو ريدة : مقدمة تحقيق رسائل الكندى الفلسفية ص١٨ - ١٩

(أ) إما من اشتقاق اسمها ، وهو حب الحكمة لأن « فيلسوف » هو مركب من «فلا» ، وهى محب ، ومن « سوفا » ، وهى الحكمة .

(ب) وحدوها أيضا من جهة فعلها ، فقالوا : إن الفلسفة هى التشبه بأفعال الله تعالى ، بقدر طاقة الإنسان ، وأرادوا أن يكون الإنسان كامل الفضيلة .

(جـ) وحدوها أيضا من جهة فعلها ، فقالوا : العناية بالموت والموت عندهم موتان ، طبيعى ، وهو ترك النفس استعمال البدن ، والثانى إماتة الشهوات .

(د) وحدوها أيضا من جهة العلة ، فقالوا صناعة الصناعات وحكمة الحكم .

(هـ) وحدوها أيضا فقالوا : الفلسفة معرفة الإنسان نفسه .

(و) فإما ما يحد به عين الفلسفة فهو أن الفلسفة علم الأشياء الأبدية الكلية ، آنياتها وماثيتها وعللها بقدر طاقة الإنسان[1] وهذه التعريفات مأثورة عن الفلاسفة اليونانيين مثل فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو ، وتركز هذه التعريفات على عدة أمور منها تهذيب الأخلاق ودور الفلسفة فى ذلك وأيضا معرفة النفس الإنسانية وأبعادها ، وهى أولى بالمعرفة من الأشياء الطبيعية ، وأيضا حقيقة الفلسفة وشمولها وعلاقتها بالعلوم والفنون ومرتبتها بالنسبة لها فهى صناعة الصناعات وحكمة الحكم ، وأيضا الموضوع الحقيقى للفلسفة أنها معرفة الأشياء فى ذاتها وليس مطلبها الحقائق الظاهرة الجزئية ، ويرى الأستاذ الدكتور أبو ريدة - أن ذلك التعريف الذى اختاره الكندى للفلسفة دون أن يشير إلى القدماء ، هو ذلك التعريف المختصر الجامع على طريقة الكندى فى الحد الموجز : « الفلسفة هى « علم الأشياء بحقائقها » ، وهذه الحقائق كلية ، والفلسفة من حيث هى هكذا شرف على جميع العلوم الإنسانية ، ولكن الشرف الأعلى بين علوم الفلسفة هو الفلسفة الأولى ، أى علم العلة الأولى ، أو هى كما يقول الكندى « علم الحق الأول الذى هو علة كل حق » وهذا

---

(١) الكندى رسائل الكندى الفلسفية ص١٧٢ ١٧٣

الشرف يرجع إلى أن شرف العلم من شرف موضوعه ، والفيلسوف التام هو الذى يحيط بهذا العلم الأشرف ، وغاية الفيلسوف هى من حيث العلم إصابة الحق ، ومن حيث العمل بالحق ، لأن معرفة الحق كمال الإنسان وتمام نوعه[١] .

والحق الأول عند الكندى هو البارى سبحانه ، ويقول الكندى فى ذلك إن فى علم الأشياء بحقائقها علم الربوبية ، وعلم الوحدانية ، وعلم الفضيلة ، وكل علم نافع ، وهذا ما أتت به الرسل[٢] .

ونشير بإيجاز إلى تقسيم الكندى للفلسفة فيذكر ابن نباتة من كلام الكندى فى الفلسفة « علوم الفلسفة ثلاثة : فأولها العلم الرياضى فى التعليم ، وهو أوسطها فى الطبع ، والثانى علم الطبيعيات ، وهو أسفلها فى الطبع ، والثالث علم الربوبية ، وهو أعلاها فى الطبع ، وإنما كانت العلوم ثلاثة لأن المعلومات ثلاثة : إما علم ما يقع عليه الحس ، وهو ذوات الهيولى ،وإما علم ما ليس بذى هيولى ، وهو إما أن يكون لا يتصل بالهيولى البتة وإما أن يكون قد يتصل بها ، فأما ذوات الهيولى فهى المحسوسات ، وعلمها هو العلم الطبيعى ، وإما ما ليس بذى هيولى فهو إما أن يتصل بالهيولى ، ولكن له انفرادا بذاته كعلم الرياضيات التى هى العدد والهندسة والتنجيم والتأليف ، وإما ألا يتصل بالهيولى البتة ، وهو علم الربوبية »[٣] .

ولقد فصل الكندى القول فى العلوم الرياضية ، وبين أهميتها وجعل لها السبق فى التعلم على العلم الطبيعى ، بل على المنطق نفسه ، وأضاف إلى تصنيف أرسطو للعلوم القائم على المشاهدة الحسية من جهة وعلى البرهان

---

(١) د . محمد عبد الهادى أبو ريدة مقدمة تحقيق رسائل الكندى ص٤٢ ـ ٤٤ وأيضا د . أحمد فؤاد الأهوانى الكندى فيلسوف العرب ص٢٧٤ ـ ٢٧٥

(٢) د . أحمد فؤاد الأهوانى : الكندى فيلسوف العرب ص ٢٨ .

(٣) د . محمد عبد الهادى أبو ريده : مقدمة تحقيق رسائل الكندى الفلسفية ص٤٦ ، ٧٦ وانظر ذلك بالتفصيل د . حسام الألوسى: فلسفة الكندى وآراء القدامى والمحدثين فيه ص١٤ ٢٥ ، وأيضا ماجد فخرى تاريخ الفلسفة الإسلامية ص١١٢ .

العقلى من جهة أخرى ، علم المسلمين الخاص بهم والقائم على القرآن المنزل على نبيه وحيا من عند الله تعالى[1] .

وعن هذا العلم الإلَهى يقول الكندى فى رسالته « كمية كتب أرسطوطاليس وما يحتاج إليه فى تحصيل الفلسفة حين يتحدث عن مرتبة العلم الإلهى فيذكر أنه بلا طلب ولا تكلف ولا بحيلة بشرية ولا زمان ، كعلم الرسل صلوات الله عليهم الذى خصه الله وتعالى علوا كبيرا أنه بلا طلب ولا تكلف ولا بحث ولا بحيلة بالرياضيات والمنطق ولا بزمان ، بل مع إرادته ، جل وتعالى ، بتطهير أنفسهم وإنارتها للحق بتأييده وإلهامه ورسالاته ، فإن هذا العلم خاصة للرسل »[2] ويظهر من هذا منزعه الدينى .

* * *

فروع الفلسفة الإسلامية

يذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق نقلا عن كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » لحاجى خليفة - فروع الفلسفة الإسلامية واتصال بعضها ببعض ، وبيان ذلك أن السعادة العظمى والمرتبة العليا للنفس الناطقة هى معرفة الصانع بماله من صفات الكمال والتنزه عن النقصان ، وبما صدر عنه من الآثار والأفعال فى النشأة الأولى والآخرة ، وبالجملة معرفة المبدأ والميعاد ، والطريق إلى هذه المعرفة من وجهين : أحدهما طريقة أهل النظر والاستدلال ، وثانيهما طريقة أهل الرياضة والمجاهدات ، والسالكون للطريقة الأولى إن التزموا ملة من ملل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهم المتكلمون ، وإلا فهم الحكماء المشاءون ، والسالكون إلى الطريقة الثانية إن وافقوا فى رياضتهم أحكام الشرع فهم الصوفية ، وإلا فهم الحكماء الإشراقيون[3] .

ولقد تحدث ابن خلدون عن الصلة بين العلوم الفلسفية ، وعلم الكلام وعلم التصوف وكذلك علم أصول الفقه .

---

(١) د . أحمد فؤاد الأهوانى : الكندى فيلسوف العرب ص٩٩ - ١٠٠ .

(٢) الكندى : رسائل الكندى الفلسفية ص٣٧٢ ٣٧٣

(٣) نقلا عن كتاب: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص٦٩ .

فلقد ذكر اختلاط علم الكلام بالفلسفة فقال « ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين ، والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوى فى الطوالع ومن جاء بعده[١] .

وذكر أيضا عن التصوف وصلته بالفلسفة ، أن المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحـدة ... ويقـول فى موضع آخـر « والذى يظهر من كلام ابن دهقان فى هذا المذهب أن حقيقة ما يقولونه فى الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء فى الألوان ، من أن وجودها مشروط بالضوء فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه»[٢] .

وهناك ما يعرف بالتصوف الفلسفى الذى يقابل التصوف السنى ، ولقد تأثر هذا الاتجاه كثيرًا بالفلسفة ومن ممثليه ابن عربى وابن سبعين وغيرهما .

وعلم أصول الفقه له اتصال وثيق بالفلسفة حيث إنه مثل المنطق ، حيث إنه يعنى بالأحكام الكلية العامة ووضع قواعد الاستنباط لهذه الأحكام الشرعية الكلية[٣] فهو ميزان يضبط العقل ويمنعه من الخطأ فى التفكير .

ولقد ذكر ابن خلدون صلته بالفلسفة حيث إنه يضم علم الجدل والخلافيات ، وهما علمان لا ينكر صلتهما بالمنطق[٤] .

وبعد هذه الإشارات يمكن القول بأن فروع الفلسفة الإسلامية تضم : فلاسفة الإسلام والمتكلمين والمتصوفة والأصوليين ، أى أنها تشمل فلسفة الفلاسفة ، علم الكلام ، التصوف ، وأصول الفقه .

* * *

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص٤٣٠ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص٤٤٤ - ٤٤٥ .

(٣) ابن الحاجب : منتهى الوصول والأمل ص٢

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص٤١٨ وما بعدها .

عوامل نشأة الفلسفة الإسلامية
١ - القرآن الكريم

١ - يعد القرآن الكريم مصدرا أساسيا للفكر الإسلامى فى شتى مظاهره المختلفة ، فلقد اعتمد عليه المفكرون الإسلاميون بمختلف نزعاتهم واتجاهاتهم ونشاطهم ، فلقد حاول المتكلمون وعلماء اللغة والفقهاء والمحدثون والمفسرون والفلاسفة والصوفية وغيرهم أن يجدوا سندًا من القرآن الكريم لعلومهم وأبحاثهم التى اشتغلوا بها[١] .

وحاول أصحاب النزعة العقلية فى الفكر الإسلامى بفروعه المختلفة أن يجدوا فى القرآن الكريم مبررا للعقل ، وفى الواقع أننا نجد فى كثير من الآيات القرآنية مناصرة للعقل ودعوة إلى استخدامه ، بل وجعله سبيلا للإيمان بالله تعالى ، وهذا يجعلنا نتعرض بإيجاز إلى دعوة القرآن للنظر العقلى لنتبين ملامحها وطبيعتها وحدود استخدامها وطريقة القرآن فى مجادلة خصوم الدعوة. وسوف نعرض فيما يلى بإيجاز إلى ذلك كله وغيره ،وإيراد أمثله كنماذج :

٢ - نجد أن أول آية نزلت من القرآن الكريم فيها إشادة بفضل القراءة والكتابة والعلم ، يقول تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾[٢] .

ففى هذه الآيات التى افتتح الله تعالى كلامه إلى رسوله إخبار بأن كمال كرم الله لعباده هو أن منحهم ملكة القراءة والكتابة والعلم ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، وإشارة إلى ما يدل على معرفته تعالى عقلا ، وتنبيه إلى فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة ، يقول الزمخشرى فى تفسيره لهذه

(١) يذهب (فيليب حتى) فى كتابه Islam A way of life إلى أن القرآن لم يضع أساس الدين والأخلاق والحياة المثالية فحسب ، بل أيضا استقى المسلم منه العلم والعلوم والعقيدة والتشريع . P . 27

(٢) العلق آية ١ - ٥ .

الآيات بأن الله تعالى نبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به ويرى الإمام محمد عبده أن فى هذه الآيات التى هى أول خطاب إلَهى وجه إلى النبى ﷺ ، تنبيه إلى المسلمين بالنظر وتمزيق الحجب التى حجبت عن أبصارهم نور العلم وكسر تلك الأبواب التى غلفها رؤساؤهم وحبسوهم بها فى ظلمات من الجهل[1] .

ويذكر القرآن الكريم فى مواضع أخرى تلك النعمة التى أنعم الله بها على الإنسان ، فلقد أنعم عليه بالوحى وهو القرآن ، وأنعم عليه بالعقل ، وهذا ما يميزه عن الحيوان ، يقول تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[2] .

ونجد القرآن فى موضع آخر يشير إلى أهمية القلم وفضله وهو أداة العلم ، فيقسم ، والقسم لا يكون إلا على شىء جليل ذى قدر ، يقول تعالى ﴿ نَ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[3] ويقول الزمخشرى فى تفسيره « أقسم بالقلم لما فى خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التى لا يحيط بها الوصف »[4] .

٣ - نجد أن الآيات القرآنية التى ورد فيها ذكر العقل والإشادة به ، والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه تند على الحصر ، وقد ورد ذكر العقل فى القرآن فى صيغ عديدة ، فتارة بلفظ القلب أو الفؤاد ، وتارة فى صيغة أفعال بلفظ المفرد او بلفظ الجمع مثل : يعقلون - يفقهون - يتفكرون -

---

(١) الزمخشرى : الكشاف جـ ٤ ص ٢٧ ، البيضاوى : أنوار التنزيل جـ ٢ ص٥٦٧ ، محمد عبده . تفسيره جزء عم ص١٢٣

(٢) الرحمن آية ١ ٤

(٣) القلم آية ١

(٤) الزمخشرى الكشاف جـ ٤ ص ١٤

ينظرون - يبصرون - يعتبرون - يتدبرون - يعلمون - يتذكرون ، وتارة أخرى فى صيغة : أولى الألباب أو أولى الأبصار أو أولى النهى ، فقد أراد القرآن أن يعبر بذلك عن الوظائف العقلية التى أراد الله للعقل الإنسانى أن يمارسها فى هذا الوجود[1] .

وورود هذه الصيغ العديدة للعقل فى القرآن إشارة إلى استخدام ملكاته ووظائفه المتعددة وعدم إهمالها أو تعطيلها .

٤ - أمر الله تعالى باتباع حجة العقل ، واستخدام القياس والحكم بالنظائر والأمثال ، فقال تعالى ﴿ فاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَار ﴾[2] وقال تعالى ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[3] وقال تعالى فى الأمر باتباع حجة العقل : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[4] .

كل هذه الآيات وغيرها تأمر الإنسان باتباع حجة العقل ، والاعتبار والاستبصار ورد الشىء إلى مثله ، أو الحكم له بحسب نظيره ، وهذا يعنى اتباع حجة العقل والأدلة العقلية .

٥ - ولقد نهى القرآن عن اتباع التقليد أو الظن أو اتباع أهواء النفس ، وتلك أمور تعوق الإنسان عن الوصول إلى الحق ، فقال تعالى فى نفى التقليد ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾[5] وقال تعالى فى العيب على العلم الظنى ، والدعوة إلى ضرورة طلب اليقين قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ، وَمَالَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾[6] . وقال فى النهى عن اتباع الهوى وهذا ينفى وجود العقل ،

---

(١) د . محمود حمدى زقزوق : دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ص ٧ - وسيرد ذكر بعض الآيات القرآنية التى ورد فيها ذكر العقل من خلال ذلك العرض .

(٢) الحشر : آية ٢ . (٣) النساء : آية ٨٣ .

(٤) الذاريات : آية ٢١ . (٥) المائدة : آية ١٠٤ . (٦) الجاثية : آية ٢٤ .

ويجعل الإنسان كالحيوان بل أضل يقول تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[1] .

وإذا تخلص الإنسان من التقليد والظن واتباع الهوى فإنه يصل إلى الحق ، ويذعن لسلطان العقل وحده الذى يوصل إلى الحقيقة ، وفى ذلك أيضا نص على أن وسيلة العلم هى الاستنباط والاستدلال ، وهما طريق العقل فى المعرفة الصحيحة ، وذلك بجانب الوحى .

٦ - والقرآن يدعو الإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية ، وممارسة الوظائف العقلية ، فلقد منحه الله العقل ، وتعطيله يعد تعطيلا للحكمة الإلهية التى أرادها الله من خلق العقل ، فهو كسائر الحواس التى خلقت كل حاسة منها من أجل وظيفتها ولا يجوز تعطيلها عن أداء وظيفتها . فكذلك العقل لا يجوز تعطيله أو تخليته عن وظيفته .

وعلى هذا فإن ممارسة الوظائف العقلية هى فريضة فى الإسلام ، « وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجبا دينيا فى الإسلام ، فإنها من ناحية أخرى مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها ، وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسئل عن استخدامه لباقى وسائل الإدراك الحسية[2] ، وفى ذلك يقول القرآن : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾[3] .

٧ - ولقد رفع الله تعالى درجات العلماء الذين يستخدمون عقولهم ، وحط من درجات أولئك الذين يعطلونها ، يقول الله تعالى فى شأن ارتفاع الإنسان بفضيلة العلم : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[4] . ويقول فى شأن أولئك الذين يعطلون عقولهم وأنهم

---

(١) الفرقان : آية ٤٣ - ٤٤ .

(٢) د . محمود حمدى زقزوق . نور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ص٨ .

(٣) الإسراء آية ٣٦

(٤) المجادلة آية ١١

فى أدنى الدرجات ، بل أحط درجة من الحيوان ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَيَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[1] .

وهذا يعنى ضرورة استخدام الإنسان لعقله ، بل إن فضله إنما يكون بمدى استخدامه لعقله ، فإذا كان الناس متساوون من حيث الخلقة إلا أنهم متفاضلون من حيث استخدامهم للعقل ، بل إن ذلك الاستخدام هو الذى يحقق معنى إنسانيتهم وتميزهم عن غيرهم ، أما تعطيل ذلك الاستخدام فهو نفى لإنسانيتهم بل وجعلهم كالحيوانات التى لا تعقل بل هم أضل ، لأن الحيوانات لا تملك العقل فتستخدمه ، أما أولئك فهم يملكون العقول ولا يستخدمونها .

٨ - يمكننا أن نستخلص منهج القرآن فى المعرفة من الآية التى سبق أن ذكرناها « الأعراف ١٧٩ » وهو يقوم على الحسن والعقل معا ، فهو يستند على الواقع الحى المشاهد ثم تجاوز ذلك المحسوس إلى المعقول ، وقد يتضح ذلك المنهج بصورة أوضح فى حث القرآن للإنسان أن يبحث فى عالم الطبيعة وعالم النفس ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾[2] .

ففى هذه الآية دعوة إلى عالم الحس والاستشهاد به ، وتتجلى فيها النظرة الواقعية ، وهذه الروح التجريبية فيما يرى د . محمد إقبال « هى فى مقابل روح البحث النظرى المجرد فى الفلسفة اليونانية »[3].

ولقد احتوى القرآن على كثير من آيات الله الكونية ، وحث على النظر فيها ، منها قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ

---

(١) الأعراف آية ١٧٩

(٢) فصلت آية ٥٣

(٣) محمد إقبال تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص١٤٦

الَّذى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الأُكُلِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] .

ويذكر القرآن وهو يعرض تلك الحقائق الكونية المشاهدة أن من لم يستعمل عقله لإدراك هذه الحقائق والتأمل فيها ، فهو ظالم لنفسه ، فهو قد عطل عقله عن النظر والتأمل فى الكون يقول تعالى ﴿ اللهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ . وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[2]

ويتحدث القرآن عن خلق الله تعالى للإنسان فى أكثر من آية منها قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ ، وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . هُوَ الَّذى يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[3]

ويقول أيضا : ﴿ هُوَ الَّذى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[4]

---

(١) الرعد : آية ٢ - ٤ (٢) إبراهيم اية ٣٢ ٣٤

(٣) غافر : آية ٦٧ ٦٨ (٤) ال عمران آية ٦

إن تتبع الآيات القرآنية التى وردت بخصوص خلق الكون وخلق الإنسان أمر لا يتسع له هذا المجال ، وإنما اكتفينا بإيراد نماذج فقط .

ومقصد القرآن فى ذلك كله أن يبين أن ذلك كله من خلق الله تعالى ويقرر هذا فى دليل موجز وقوى ، فيقول تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، بَلْ لاَّ يُوقِنُونَ ﴾[1]

٩ - لقد أقام القرآن الإيمان بالله تعالى على أساس الدليل والبرهان ، وطالب معتنقيه بضرورة التأمل فى المعجزة الكونية الظاهرة ، ولقد رد أكثر من مرة على أولئك الذيم يطالبون بمعجزة خارقة للطبيعة ، كأن ينزل عليهم الملائكة أو ينزل عليهم كتاب من السماء فيلمسوه بأيديهم ، أو يريدون علامات أو آيات تصعقهم وتسحقهم بشدة ، وكلما أرادوا علامات خارقة للطبيعة ، كان القرآن يلفت أنظارهم إلى الطبيعة الظاهرة ، وينبههم إلى أنهم إن لم يدركوا الله فى آثاره الطبيعية الظاهرة العادية ، فكيف يتسنى لهم إدراكه فى الآثار الخفية الشاذة .

إن القرآن يحول أنظار الإنسان من البحث فى الأمور الخارقة للطبيعة إلى الأمور الطبيعية التى تقود إلى فهم الحياة[2] .

القرآن بذلك يريد أن ينتقل بالإنسان من مرحلة الإيمان عن طريق المعجزة الحسية وحدها الخارقة للطبيعة ، التى تبهر أنظار من يشاهدها ، إلى طريق الإيمان القائم على التفكير والعلم والبرهان ، وعلى لفت الأنظار إلى الواقع المحسوس ، وإلى أن المعرفة تبدأ من المحسوس ، وقدرة العقل على تحصيل

(١) الطور : آية ٣٥ - ٣٦

(٢) Khalij . : Islamic Idealogy P. 27 - 28 .

والآيات التى تنهى عن طلب الخارق للطبيعة كمعجزة هى قوله تعالى ﴿ ومَا تأتيهم من آية من آيَات ربّهم إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرضين ﴾ ، ﴿ ولَوْ نزّلْنا عَلَيْكَ كتابًا فى قرْطَاس فَلمسُوهُ بأيْديهم لَقَال الَّذين كَفَرُوا إنْ هذَا إلاَّ سحْرٌ مُبينٌ ﴾ ، ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جهْد أيْمانهمْ لئن جاءتْهُم آيَةٌ ليُؤْمنُن بها . قلْ إنَّما الآياتُ عند الله ، وما يُشْعركُمْ أنَّها إذا جاءت لا يُؤْمنُون ﴾ الأنعام الآيات ٤ ، ٧ ، ٩ ، ١

ذلك المحسوس واستيعابه هو الذى ييسر له الانتقال من المحسوس إلى غير المحسوس، فمعرفة الله تعالى تكون عن طريق معرفة آثاره الظاهرة فى الطبيعة ، والتأمل فيها ، ومعرفة ما فى العالم الخارجى من نظام واتساق يدل على مدبر حكيم عليم ، وأيضا تأمل النفس وأحوالها ، وتطور خلق الإنسان وتعدد مراحلها ، ولكل مرحلة منها خصائصها ، كل ذلك يدل على أن ذلك كله بيد الله الخالق ، العليم بخلقه والذى أعطى لكل شىء قانونه ونظامه الذى يسير بمقتضاه .

١٠ - وإذا كان القرآن قد احتوى على كثير من الآيات الكونية ، ودعى إلى النظر والتأمل فيها ، ودعى إلى العلم الطبيعى ، إلا أنه كتاب عقيدة وليس كتابا فى العلم الطبيعى ، لذا فإن من غير المعقول أن ننشد تفاصيل العلوم فى القرآن[١] ، بل إن خير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير ، ولا يتضمن حكما يشل حركة العقل فى تفكيره ، وكل هذا مكفول للمسلم فى القرآن لأنه يجعل التفكير السليم والنظر الصحيح إلى آيات خلقه وسيلة من وسائل الإيمان بالله[٢] .

ومن هنا يكون من الخطأ أن يطلب من كتب العقيدة أن تطابق مسائل العلم ، وذلك لاختلاف طبيعة كتاب العقيدة وطبيعة العلم ، فكتاب العقيدة ثابت لا يتغير ، وهو وحى الله تعالى إلى البشر ، أما العلم فمتغير غير ثابت ، فالنظريات العلمية فى تغير ، وهى تتوقف على مجهودات الإنسان ومحاولاته ، وإذا ربطنا القرآن بالنظريات العلمية ، فإننا بذلك نجعل تلك النظريات العلمية مقياسا لصحة العقيدة ، وهذا خطأ كبير ، « إنما حسب العقيدة الصالحة أنها تنهض بالعقل ولاتصده عن العلم »[٣]

---

(١) Seyyed Hossein : Ideals and relai ies of Islam . p. 50

(٢) العقاد : الفلسفة القرآنية ص١٣ .

(٣) العقاد : الفلسفة القرآنية ص٦ ، وقد ذكر الأستاذ العقاد أنه ينبغى أن نستفيد من النظريات العلمية دون أن نقحمها على القرآن الكريم أو نعتقد أن القرآن الكريم مطالب بموافقتها كلما تغيرت من زمن إلى زمن ومن تفكير إلى تفكير . نفس المصدر ص١٧٤ .

وإذا كان القرآن يدلنا على بعض الحقائق العلمية ، فإن الحقيقة العلمية ثابتة ولا تتغير ، أما النظريات العلمية فهى فى تغير مستمر

١١ - القرآن يذكر الوحى الإلَهى مقرونا إلى « الحكمة » كأنها مرادفة للوحى أو ثمرة لفهمه والتفكير فيه ، بل إن القرآن يعتبر نفسه « ذكرا » و« هدى » و « نورا مبينا » و « فرقانا » بين الحق والباطل ، فالقرآن ليس كتاب دين فحسب ، بل هو كتاب علم وحكمة وهو « ذكر حكيم » فيه من حيث هو وحى إلَهى تعليم إلَهى يعطى للناس ، به يعلمون من الحقائق مالم يكونوا يعلمون ، وهذا يعنى التفكير فيه لفهمه ، واستنباط آراء منه ، ولقد وجد علماء الإسلام وحكمائه على تنوع ميادين بحثهم فى آيات القرآن مادة علمية وفلسفية يقتبسونها فى مصنفاتهم ، أو شعارا لهم فى بحثهم ، أو معانى يستمدونها ، أو أدلة يستخرجونها[١] .

ولقد استعمل القرآن الحكمة بمعناها اللغوى ، أى العلم النافع والفقه فى شؤون الحياة بتعرف الحق فيها وإمضائه[٢] ، فهو يشجع على المعنى العملى للحكمة ، ولقد استعمل المعنى النظرى للحكمة وهو الخاص بالجدل فى العقائد بقدر محدود .

١٢ حديث القرآن عن الحقائق على نحو يثير البحث فهو أحيانا يتكلم على سبيل الحقيقة ، وأحيانا على سبيل المجاز ، وهو أحيانا يتكلم عن الشىء فى ذاته وأحيانا يتكلم عنه من حيث علاقته بغيره ، وأحيانا يشير إلى العلة الأولى تارة وإلى العلل القريبة تارة أخرى[٣] .

١٣ - القرآن يشتمل على آيات محكمات وأخر متشابهات ، يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[٤]

---

(١) د . محمد عبد الهادى أبو ريدة نصوص فلسفية عربية ص٢

(٢) مصطفى عبد الرازق تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص١١٨ ١١٩

(٣) د محمد عبد الهادى أبو ريدة نصوص فلسفية عربية ص٢

(٤) آل عمران آية ٧

ولقد اختلف فى معنى المحكم والمتشابه ، ودون دخول فى تفصيل ذلك الخلاف ، فإن المعنى الغالب للمحكم هو ما لا خلاف عليه ، والمتشابه هو الذى اشتبه معناه على الناس فاختلفوا فيه .

ويرى بعض علماء الكلام أن العلة فى وجود المحكم والمتشابه فى القرآن هى ضرورة النظر والتأمل فى القرآن لمعرفة المحكم والمتشابه وأن ذلك باعثا للتفكير والنظر[١] .

١٤ - إن القرآن نص مقدس لا يقـارن بأى شكل من أشكال كتابة البشر ، إنه رسالة إلَهية بلغة بشرية،فهو لا يشبـه مصنفـات التصوف والمنطق ، لكنه يحوى التصوف والمنطق ،وإنه ليس شعرا ومع ذلك فهو يحوى أقوى الشعر وأعظمه[٢] .

وهذا يعنى خلوص القرآن من قيود الشعر والسجع ، فهو لهذا يوحى إلى حد كبير بتفكير منهجى فى المسائل التى يتناولها ، صراحة أو إشارة أو رمزا، والفاصلة التى تختتم بها الآيات ليست فى شىء من القافية فى الشعر التى تتكرر وتلتزم فى القصيدة كلها ، والشاعر مقيد بالتزام القافية ، لذا يعسر عليه أن يتابع فكرته على النهج المنطقى ، أما الفاصلة فى القرآن فإنها ليس من الضرورى أن تنتهى بها الفكرة بل إنها لتسمح بمتابعة الفكرة الواحدة فى جملة آيات معا[٣]

فالقرآن بذلك لا يتقيد بصيغ فنية معينة ولا بقواعد منطقية معينة ، لكنه يعلو على تلك الصيغ والقواعد فى منهجه العقلى ومخاطبته لكافة عقول البشر على اختلاف أنواعها ، وتنوع درجات تصديقها .

وعلاوة على ذلك فإن لغة القرآن تغاير لغة الفلسفة ، فمصدر لغة القرآن الوحى الإلَهى ، وهو ثابت غير متغير ولم يطرأ عليه تغيير أو تحريف ، أما لغة

---

(١) انظر على سبيل المثال المتدى التوحيد ص٢٢١ ٢٢٣ ، والزمخشرى من المعتزلة فى تفسيره الكشاف جـ١ص٤١٢ والرازى من الأشاعرة تفسير جـ٢ص٧ ١

(٢) Seyyed Hossein Ideals and realities of Islam P. 47

(٣) د محمد يوسف موسى القرآن والفلسفه ص٥٢ ٥٣ نقلا عن ماسنون

الفلسفة فهى متغيرة ، وذلك لأنها تختلف موضوعا وغاية ومنهجا ، والفلسفات متنوعة ، وأصحاب كل فلسفة يستخدمون لغة تلائم التعبير عن أفكارهم ، ولا يتقيدون فيها إلا بما يرون أنه يساير المنطق ويتمشى مع العقل ، وعلى هذا فإن لغة القرآن فى ثباتها وعدم تطورها تختلف عن لغة الفلسفة التى تتطور مع تطور الفلسفة واتجاهات أصحابها .

فلغة القرآن الكريم لا تعارض بين معانيها ومنطق العقل ، ولكنها بمعانيها لا تشكل فى نهاية المطاف كتابا فى المنطق أو فى غيره من العلوم إن الهدف الذى ترمى إليه هو هداية البشر وليس وضع أسس العلم أو الفن أو الفلسفة[1].

* * *

٢ - عامل الترجمة

عندما توسعت الفتوحات الإسلامية وشملت أقطارا عديدة من البلدان ، كانت تلك الأقطار ذات حضارة فكرية متعددة وحدث الاحتكاك الفكرى بين المسلمين وأصحاب تلك الحضارات ، وبعبارة أخرى حدث اتصال بين الإسلام وتلك الحضارات حيث اطلع المسلمون بعد نقل تراث تلك الحضارات إلى اللغة العربية ، على تلك الحضارات وكان لهذا الاتصال أثره الذى يتضح فيما قبله المسلمون من تلك الأفكار والعلوم التى اطلعوا عليها أو فيما رفضوه وردوا عليه من تلك الأفكار والعلوم وعدوه مخالفا لعقيدة الإسلام .

ولكى نتبين حركة الترجمة علينا أن نشير فى إيجاز إلى الطريق الذى عرف منه المسلمون تلك العلوم ومرت به حركة الترجمة ، ثم الإشارة إلى دور الترجمة وأهم الشخصيات التى قامت بها ، وكذلك الإشارة إلى أهم الموضوعات التى ترجمت ، وسوف نتحدث عن ذلك بإيجاز .

لقد انتقل التراث اليونانى إلى الشرق ، وانتشرت مراكز البحث الفلسفى فى البلاد التى فتحها المسلمون ، فنجد مكتبة الاسكندرية قد امتد نشاطها وقت

---

(١) د . توفيق الطويل : قضايا من رحاب العلم والفلسفة البحث الرابع بين لغة القرآن الكريم ولغة الفلسفة ص ١٥٥ إلى ١٩٤ وانظر أيضا د محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم نظرات جديدة فى القرآن

فتح العرب لمصر ، وقد كانت المدرسة اليونانية الوحيدة فى البلاد التى غزاها العرب فى دفعتهم الأولى ، ولقد أثبت « ماكس مايرهوف » كذلك قصة إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية[1] - ولا يستبعد أن تكون مكتبة الإسكندرية قد قامت بدورها فى نقل العلوم إلى العرب .

ولقد نفذت المعارف اليونانية إلى الشرق قبل الإسلام وذلك فى المناطق التى تتكلم السريانية والفارسية ، فكانت مدرسة الرها ونصيبين وبعض المدارس التى كانت موجودة فى الأديرة ، ولقد كان معظم التعليم فى هذه المدارس تعليما دينيا يتصل بالنصوص المقدسة لكنه كان يوجد تعليم آخر يتصل بالأمور الدنيوية ، وكان الأطباء يعظمون مؤلفات بقراط وجالينوس وأرسطو[2] ومدرسة حران وهى قريبة من الرها كان لها مكان خاص وخاصة بعد الفتح العربى . واتصلت وثنية السابقين القديمة بالأبحاث الرياضية والفلكية وبنظريات المذهبين الفيثاغورى الجديد والأفلاطونى الجديد .

وكان الحرانيون وهم يسمون بالصابئة على اتصال وثيق بعلماء الفرس والعرب من القرن الثامن إلى العاشر (الثانى والرابع من الهجرة)، وكان لهم دور فى الترجمة .

ومدرسة جنديسابور التى أسسها كسرى أنو شروان (٥٣١ - ٥٧٩م) فى فارس وكانت معهدا للدراسات الفلسفية والطبية ، وقدا استقبل كسرى سبعة من فلاسفة المذهب الأفلاطونى الجديد بعد هروبهم ، بعد أن أغلق جوستنيان مدرسة أثينا عام ٥٢٩م .

وعندما فتح المسلمون بلاد الفرس ونقلوا معارفها كان من بين ما نقلوه هذه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

ولقد قام السريان بدور الترجمة لهذا التراث اليونانى من اليونانية إلى السريانية منذ القرن الرابع الميلادى حتى القرن الثامن الميلادى ، وترجموا مجموعات من الحكم الأخلاقية وصبغوها بصبغة مسيحية ولكنهم ترجموا

(١) ماكس مايرهوف : من الاسكندرية إلى بغداد ترجمة د عبد الرحمن بدوى فى كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ص٣٧ ٣٨

(٢) دى بور تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص١٧

الكتب المنطقية والطبية والطبيعية بأمانة ، ولم تكن الفلسفة التى ترجموها يونانية قديمة وإنما كانت مخلوطة بشرح الأفلاطونية الحديثة ، وعرفوا كتب أرسطو ممزوجة بشروح المتأخرين من الأفلاطونية الحديثة .

وهذه الفلسفة التى ترجمها السريان عرفها المسلمون ، وذلك بعد أن أفتى يعقوب الرهاوى بأنه يجوز للقسس المسيحيين أن يقوموا بتعليم أبناء المسلمين[١] .

ولقد بدأت حركة الترجمة لهذا التراث إلى العربية فى عهد خالد بن يزيد ابن معاوية الذى يسميه « ابن النديم » حكيم آل مروان ويذكر أنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر ،وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصيغة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى ، وهذا أول نقل فى الإسلام من لغة إلى لغة[٢] .

ولقد توالت حركة الترجمة إلى اللغة العربية واردهرت أيام العباسيين ، ويقسم « سانتلانا » الأدوار التى مرت بها هذه الحركة إلى ثلاثة أدوار :

الدور الأول : يبدأ من خلافة أبى جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد أى من سنة (١٣٦ - ١٩٣ هـ) وتمثل هذه الفترة الطبقة الأولى من المترجمين منهم يحيى بن البطريق ترجم المجسطى فى أيام المنصور ، جورجيس بن جبرائيل الطبيب (عاش سنة ١٤٨ هـ) وعبد الله بن المقفع (١٤٢ هـ) ترجم بعض الكتب المنطقية لأرسطوطاليس ، ويوحنا بن ماسويه كان فى أيام الرشيد، وأدرك المتوكل ،واعتنى فى الأغلب بالكتب الطبية .

الدور الثانى : من ولاية المأمون (١٩٨ - ٣٠٠ هـ) وهى الطبقة الثانية من المترجمين منها : يوحنا بن البطريق ، الحجاج بن مطر (عاش ٢١٤ هـ) وكذلك قسطا بن لوقا البعلبكى (عاش ٢٢٠هـ) وعبد المسيح بن ناعمة الحمصى (عاش ٢٢٠ هـ) وحنين بن إسحاق (توفى ٢٩٨ هـ) وثابت بن قرة الصابى (توفى ٢٨٨هـ) .

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص١٩ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص٣٣٨ .

ومما ترجم فى هذا العصر، أغلب كتب بقراط، جالينوس، أرسطوطاليس ، وشىء من كتب أفلاطون أو من التفاسير على الكتب المذكورة.

الدور الثالث : من (٣٠٠ هـ إلى منتصف القرن الرابع الهجرى) ومن مترجمى هذه الطبقة : متى بن يونس ، سنان بن ثابت بن قرة الذى توفى (٣٦٠هـ)، يحيى بن عدى (توفى ٣٦٤هـ) وأبو على بن زرعة (٣٩٨هـ) وكان أكثر اشتغالهم بالكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو وبالمفسرين كالاسكندر الأفروديسى ويحيى النحوى وغيرهما[١] .

ولقد ذكر ابن النديم الكتب التى ترجمت لأفلاطون وأرسطو وأسماء المترجمين لها[٢] .

ومن هذا يتضح لنا أن المسلمين قد عرفوا التراث اليونانى عن طريق مباشر وهو نقل الكتب إلى العربية ، إلا أن هذه الترجمة لم تكن صحيحة تماما فلقد شابها بعض الأخطاء والتشويه والتحريف والتلفيق والتوفيق بين بعض المذاهب اليونانية « ولكن لم يكن المسلمون هم المسئولين عن كل هذا ، فلقد نقلت المذاهب إليهم فى الصورة وحركة التشويه والتلفيق بين المذاهب اليونانية المتعارضة قد تمت لدى التراث الوسيط بين العرب واليونان لدى السريان ، ولقد كان السوريان وارثى اليونان فى هذه المنطقة التى سميت بمنطقة الشرق الأوسط والأدنى ، وكانوا يجيدون اليونانية ، ونقلوا الكثير من التراث اليونانى إلى السوريانية قبل العربية ، وفى هذا الوسط السوريانى شوهت المذاهب اليونانية وبخاصة التراث الأرسطوطاليس ، فقد نسب إلى أرسطو كتبا ليست له فأجزاء من تاسوعات أفلوطين باسم « أوثولوجيا » نسبت إلى أرسطو ، لذلك نسبت إليه كتب لبرقلس وغيره[٣] .

---

(١) سانتلانا: تاريخ المذاهب الفلسفية ص١٩٢ - ١٩٣ ويذهب الأستاذ بول كراوس إلى أن المترجم للكتب المنطقية ليس عبد الله بن المقفع ولكنه ابنه محمد بن عبد الله ابن المقفع . انظر التراجم الأرسطوطالية المنسوبة إلى ابن المقفع لـ بول كروس « ترجمة د/ عبد الرحمن بدوى فى كتابه التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ص١ ١- ١٢ .

(٢) ابن النديم الفهرست ص٣٤٣ - ٣٥٢

(٣) د على سامى النشار نشأة الفكر الفلسفى جـ١ ص ١١

ولقد استفاد ممثلو الفلسفة الإسلامية بمختلف فروعها فلاسفة ومتكلمين وعلماء أصول الفقه ومتصوفة من حركة الترجمة، وإن اختلفت مدى الاستفادة فيما بينهم لكنهم لم يكونوا مجرد ناقلين بل ناقدين ومعارضين أحيانا .

* * *

٣ - الفكر الشرقى القديم

لقد عنى الباحثون بذكر الصلة بين الفكر الفلسفى اليونانى بمدارسه المختلفة وبين الفكر الفلسفى الإسلامى - بينما أهملوا ذكر الصلة بين الفكر الشرقى القديم والفكر الإسلامى ، ولا يعنى ذلك الإهمال انعدام الصلة بينهما ، ولقد أشار « دى بور » إلى تلك الصلة ، فذكر أن ما أفاده المسلمون من الحكمة الهندية والفارسية أكبر شأنا من كل ماورثوه من العقل السامى ، فبلاد الفرس هى بلاد الثنوية ، ومن المحتمل أن تكون تعاليمها الدينية وما فيها من أثينية قد أثرت فى الخلافات الكلامية فى الإسلام تأثيرا مباشرا ، أو عن طريق المانوية أو الفرق الفنوطسية الأخرى ، وأيضا مذهب الدهرية الذى صار دينا يجاهر الناس به فى عهد يزدجر الثانى من الدولة الساسانية٤٢٨ - ٤٥٧ هـ قد أثر تأثيرا كبيرا عند بعض المفكرين الذين لا يتصل تفكيرهم بالدين ، ولقد قاوم المتكلمون ذلك الفكر المادى الإلحادى ، ولم يكن الفلاسفة المثاليون أقل إنكارا له من المتكلمين .

أيضا يذكر « دى بور » أن المسلمين عرفوا آراء الهنود فى المنطق وفيما بعد الطبيعة ، غير أن هذه الآراء فى التطور العلمى كان لها دور أثر فى الرياضيات والتنجيم ، ولا شك أن تأملات الهنود المرتبطة بكتبهم المقدسة والمقيدة بالدين تقيداً تاماً كان لها أثر متصل فى الصوفية الفارسية والإسلامية[١] .

ولقد أشار « هنرى كوربان » إلى دور مدرسة صابئة حران فى الترجمة منذ القرن الثامن إلى القرن العاشر ، وخاصة ثابت بن قرة ، وكان من أتباع الديانة الفلكية ، وترجمت تلك المعتقدات الكلدانية الفلكية القديمة[٢] .

---

(١) دى بور . تاريخ الفلسفة فى الإسلام .

(٢) كوربان . تاريخ الفلسفة الإسلامية ص٥٩ .

ولقد كانت هذه الصلة موجودة قبل الإسلام فى الجزيرة العربية حيث سكنها كثير من المستوطنين الهنود فى سواحل الخليج العربى وكانت لهم أماكن خاصة مستقلة ، فكان منهم فى « نجد » و « المدينة » التى كانت تعد سوقا رائجة للتجارة ، وكان منهم من يسكن فى شمال وغرب بلاد العرب ولم يقتصر الأمر على العلاقات التجارية بين العرب والهنود والفرس ، بل تعدى إلى الجانب الدينى ، فلقد تأثر العرب بأفكار هؤلاء الدينية ، واعتنقها البعض منهم[1] .

* * *

٤ - طبيعة العقل البشرى ذاته

العقل الإنسانى لا يكف عن التساؤل عن أصل الكون ، وعن غته ، وما هو مصيره ، وعن الروح وعلاقتها بالبدن ، وعن البعث وأحواله ، وغير ذلك من المسائل الميتافيزيقية .

ولقد كان لهذه التساؤلات التى يثيرها العقل البشرى أثر فى نشوء بعض المباحث الفلسفية ، ولقد كان « ماكدونالد » على حق حينما رأى أن البحث فى « القدر » وهو من المسائل الكلامية التى بحثها المتكلمون هو العقل البشرى وضرورة التفكير فيه ، وما يلاحظه من التناقض بين قدرة الله المطلقة وبين حرية الإنسان عن أعماله ومسئوليته عنها[2] .

* * *

---

(١) القاضى أطهر مباركيورى الهندى العرب والهند فى عصر الرسالة ترجمة د عبد العزيز عزت ص٨٧ ٩١

(٢) Macdonald Development of Muslim Theology P 127